والأرض بعد ذلك دحاها



عبد العزيز محمد النظري، كتاب وما أدراك ما الأرض؟، صفحة 163إلى 167.

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا) [سورة النازعات: 30]

استدلّ بهذه الآية بعض المعاصرين على أنّ الأرض بيضاوية الشكل أو كروية، وذلك أنهم زعموا أنّ دحاها أي جعلها كالدحية وهي البيضة أو بيضة النعامة على زعمهم، وعن نفسي فإني لم أجد في معاجم اللغة هذا، فلا أدري من أين أتوا بهذا المعنى المُتَوَهّم؟ فإنّ أكثر المفسرين فسروا هذه الآية بمعنى بسطها، وآخرون فسروها بما بعدها من الآيات: (أخرج منها ماءها ومرعاها)، فمن أين جاؤوا بأنّ دحاها بمعنى البيضة؟

دعونا نستعرض بعض ما قاله المفسرون:

قال ابن عباس: "بسطها" وقال ابن زيد: "حرثها وشقها"، وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: "الدحو إنما هو البسط في كلام العرب، والمدّ يقال منه: دحا يدحو دَحْوًا، ودَحَيْتُ أَدْحِي دَحْيًا لغتان ومنه قول أُمَّية بن أبي الصلت:

دَارٌ دَحاها ثُمَّ أعْمَرَنا بِها   وأقامَ بالأُخْرَى التي هيَ أمْجَدُ

وقول أوس بن حجر في نعت غيث:

يَنْفِي الحصَى عن جديد الأَرْضِ مُبْتَرِكٌ   كأنَّه فاحِصٌ أو لاعبٌ داحِي

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل، ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (والأَرْضَ بَعْدَ ذلكَ دَحاها): أي بسطها. حدثني محمد بن خلف، قال: ثنا رَوّاد، عن أبي حمزة، عن السديّ (دَحاها) قال: بسطها. حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا سفيان: دحاها: بسطها. وقال ابن زيد في ذلك ما: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: (دَحاها) قال: حرثها شقَّها وقال: (أخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها)، وقرأ: (ثُمَّ شَقَقْنا الأرْضَ شَقًّا) حتى بلغ (وَفاكِهَةً وأبًّا)، وقال حين شقَّها أنبتَ هذا منها، وقرأ: (والأرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ)".

قال القرطبي في تفسيره: " أي بسطها"، وقال أيضًا: "والعرب تقول: دَحَوْت الشيءَ أدحوه دحوًا: إذا بسطته، ويقال لعش النعامة أُدحِيّ؛ لأنه مبسوط على وجه الأرض" وقال الزمخشري في تفسيره: "بسطها ومهدها للسكنى،

ثمّ فسّر التمهيد بما لا بدّ منه في تأتي سكناها، من تسوية أمر المأكل والمشرب وإمكان القرار عليها، والسكون بإخراج الماء والمرعى، وإرساء الجبال وإثباتها أوتادا لها حتى تستقر ويستقر عليها"، في تفسير الفيروز آبادي: "مع ذلك بسطها على الماء، ويقال بعد ذلك بسطها على الماء بألفي سنة".

قال الفخر الرازي: "وفيه مسائل: المسألة الأولى: دحاها بسطها، قال زيد بن عمرو بن نفيل: دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا، وقال أمية بن أبي الصلت:

دحوت البلاد فسويتها وأنت على طيها قادر

قال أهل اللغة في هذه اللفظة لغتان دحوت أدحو، ودحيت أدحى، ومثله صفوت وصفيت ولحوت العود ولحيته وسأوت الرجل وسأيته وبأوت عليه وبأيت، وفي حديث عليّ عليه السلام: "اللهمّ داحي المدحيات" أي: باسط الأرضين السبع وهو المدحوات أيضًا، وقيل: أصل الدحو الإزالة للشيء من مكان إلى مكان، ومنه يقال: إنّ الصبي يدحو بالكرة أي يقذفها على وجه الأرض، وأدحى النعامة موضعه الذي يكون فيه أي بسطته وأزلت ما فيه من حصى، حتى يتمهد له، وهذا يدلّ على أنّ معنى الدحو يرجع إلى الإزالة والتمهيد".

قال ابن الجوزي في زاد المسير: "دحاها أي بسطها" وقال النسفي: "بسطها وكانت مخلوقة غير مدحوة فدحيت من مكة بعد خلق السماء بألفي عام" وقال البيضاوي: "بسطها ومهدها للسكنى" وقال البغوي: "بسطها، والدَّحْو: البسط"، قال ابن عطية: "دحو الأرض بسطها". قال الخازن: "أي بسطها ومدها". قال أبو حيان في التفسير: "أي بسطها" وفي تفسير الجلالين: "بسطها وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو" قال الشوكاني في فتح القدير: "بسطها".

قال ابن عجيبة في تفسيره الصوفي: " بسطها ومهّدها لسكْنى أهلها وتقلُّبهم في أقطارها، وكانت حين خُلقت كورة غير مدحوةٍ، فدحيت من تحت مكة بعد خلق السماء بألفي عام، ثم فسّر الدحو فقال: (أخرج منها ماءها) بتفجير عيونها وإجراء أنهارها، (ومرعاها) كلأها، وهو ما ترعاه البهائم"، قال الطبرسي الشيعي: "أي بعد خلق السماء بسطها من الدحو وهو البسط" وكذلك الطبطبائي: "أي بسطها ومدها بعد ما بنى السماء ورفع سمكها وسوّاها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها".

كما تلاحظون أكثر المفسّرين ذهبوا إلى أنّ المعنى بسطها، فمن أين جاء بعض الإخوة المعاصرين أنّ بسطها يعني جعلها بيضاوية أو كروية؟ التَوَهُّم حصل - والله أعلم - أنّهم خلطوا بين مبيض النعام ببيضة النعامة، فإننا نجد في لسان العرب: "والأُدْحِيُّ والإدْحِيُّ والأُدْحِيَّة والإدْحِيَّة والأُدْحُوّة: مَبِيض النعام في الرمل، وزنه أُفْعُول من ذلك، لأَن النعامة تَدْحُوه برِجْلها ثم تَبِيض فيه وليس للنعام عُشٌّ. ومَدْحَى النعام: موضع بيضها، وأُدْحِيُّها: موضعها الذي تُفَرِّخ فيه. قال ابن بري: ويقال للنعامة بِنْتُ أُدْحِيَّةٍ". فهم خلطوا بين مبيض النعامة أو الموضع الذي تبيض فيها وبيضها، فأقوال المفسّرين المتقدمين أصح بكثير من أقوال المعاصرين الذين تأثروا بنظرية الأرض الكروية.

عندي ملاحظة أنّ دحاها قد تكون إضافة إلى كونها بسطها أي جعلها مدحوة كمبيض النعامة، وليست بيضة النعامة، يعني جوانبها مرتفعة، وهكذا تفعل النعامة، لتحفظ بيضها، وتمنع الرياح من تحريك البيضة ولغيرها من أغراض الحماية. إذًا الأطراف مرتفعة، والأرض التي عليها البيضة منخفضة بعض الشيء، هل هذا المعنى يستقيم مع القرآن؟ أرى أنّه يستقيم، ولا أستبعد أن تكون الأرض أول ما خلقت على هيئة الكرة المطاطية أو المعجونية ثمّ دحاها الله بأيّ معنى كان، بيده أو قدمه أو قدرته أو أي من مخلوقاته، فانبسطت الأرض بسبب هذه الضربة، وامتدّت وصارت لها أطراف مرتفعة، ويمكنك أن تجرّب هذا حتى في بيتك، اصنع كرة ثمّ اضغط عليها من وسطها، أو اضربها بقبضتك، ما الذي يحدث؟ تتمدّد الكرة، وتخرج منها ما بداخلها إن كانت مثلا كرة معجونية أو إسفنجية، فإن فهمت الذي أقوله فستجد سهولة أكبر في ربط الحقائق القرآنية مع التوراة، وما يسمى اليوم الكتاب المقدّس، كذلك مع الأحاديث المنسوبة إلى النبيّ عليه الصلاة والسلام وصحابته والتابعين، أيضًا مع الأساطير الدينية، كذلك ستجد أنّ هناك قرابة مع ما كان ذائعا عندنا في العامية: "فلان دحّ ظهر فلان" ويقصدون ضرب ظهره بقوة!